الفصل الأوّل

أوّل المُهاجرين

فى الساعات الأولى التالية لشروق فجر الرسالة كان هناك نفرٌ كرام من صَفوة البشر ، وضَعَ القدر عينه عليهم ليصطنع منهم الرَّعيلَ الأول فى الموكب الباهر الهادر الطويل الذى سيحمل عَبْر القرون كلمة الدين إلى الدنيا . . والذى سيحمل نور الله وهُداه إلى الخلائق المزدحمة فى تِيهٍ ما له أوّل ، ولا آخر ، وما له من قَرار . . ! !

وحين تتقدم المقادير بنفسها لتختار وتصطفى ؛ فإنها تدَعُ العقول فى حَيْرة من طريقتها ونهجها فى الاختيار . . !

فى هذا المقام الذى نحن بصَدَدِه وسبيله ،نجدها تختار السيد المتألق فى جبين قومه ، المتربع فوق ذُرَى المجد من عشائره ، إلى جوار العبد الرقيق الذى يُباع وُيشترَى ، ولا يَملك من دنياه وفى دنياه سوى السلاسل والأغلال . . !

ونجدها تختار الثرِىّ العريض الثراء ، إلى جوار الفقير المعدِم السَّغْبان . . !

وتختار الأيّدَ ، الشديد ، القوى ، الذى يصرع أشداء العرب فى مهرجانات « عُكاظ » ؛ لتضعه إلى جوار الضعيف المعروق الضّامر الذى تُرجِفُ ساقيه النسماتُ الوادِعات . . !

وتختار الداهية الذى يتفجّر ذكاء ، وحيلة ، واقتداراً — إلى جوار الغِرِّ الكريم الذى لا تجربة له ، ولا حِيلَة مَعه . . !

* * *

من الشَّتَاتِ المتباين ، ودُنَمَا اعتبار لخصائص معينة ، أو روابط خاصة ، تَقدم القدر نحو الجموع العريضة واختار منها أبطال المسيرة الأولى للدين الجديد الذى أذِنَ الله لرسوله المصطفى « محمد » عليه الصلاة والسلام أن يُعلن نداءه . . ويرفع لواءه .

ومن هذا الرَّعيل المتباينة صِفاتُه ، المختلفة طباعه ودرجاته ، سيصوغ الإسلام معجزته الكبرى .

سيجعل من بعض أشراف قريش وسادتها أمثال أبى بكر . وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أنداداً وإخوة لبعض عبيدها ومستضعفيها ، أمثال صُهَيب ، وبلال ، وعمّار . . ! !

سيخلق من التفاوُت وحدة . . ومن التباين آصِرةً ورَحِماً .

تُرى ، ألم يكن للقدر وهو يختار أبطاله هؤلاء معياراً مُشتركاً ، يلتقى حوله ويتوحَّد فيه هذا الشَّتات المتباين من الخصائص . والمنازِل والقُدْرات .

بَلى ، كان ثَمَّةَ نبراس مشترك لا ريب . . وما إدراكه بعزيز ! !

فإذا كان القرآن العظيم يخبرنا أن الله « أعلمُ حيث يَجْعل رسالتَه » ؛ فإنه سبحانه يعلم كذلك كيف يَختار لرسوله حَواريّيه وبِطانَتَه .

وإذا كان الرسول – أىُّ رسول – إنما يختاره الله ليوكِّد وجودُه وسيرتُه بين الناس تفوُّقَ الحق ، والخير ، والفضيلة ، وليَهَبَ حياته كلها فى سماحٍ مطلق لنصرة الحق ، والخير ، والفضيلة – فلا بد لهذا الرسول أن يكون بنعمة ربه ، وبفضائل نفسه ، وبعزائم روحه فى مستوى دَوْره ورسالته وقُدوته .

وإذا كان الرسول – أىُّ رسول – لن يعمل وحده بل لا بد له من أنصار يؤمنون به ويؤمنون معه ؛ فلا بد أن يكون هؤلاء الأنصار فى مستوى المهمة الجليلة التى سينهضون بأعبائها .

وسواءٌ عليهم أن يجيئوا من صفوف الأشراف والسادة والأثرياء . . أو يجيئوا من صفوف البُسَطاء والعبيد وذوى الخَصاصَةِ والإملاق .

إن القدر وهو يختار أبطاله من الجموع المزدحمة ، إنما يضع كلتا عينيه على « الشخصية الباطنة » لكل فرد ، حيث تكمن حقيقته ، وتبدو فى غير زخرف ، ولا زيف ، ولا تنكُّر .

وعلى الشخصيات السَّوِيَّة التى يؤهلها طهرها ونبلها واستقامتها للاصطفاء ، كان القدر يضع وِسامَه ، معلناً بذلك اختيار البطل لدوره .

على هذا المستوى ، وبهذا النهج ، تقدمت مقادير الإسلام لتختار له الجديرين بحمل دعوته فى فَجره الغَضّ ، وأيامه الباكِرَة .

ومن هؤلاء المصْطَفَيْن ، كان « عثمان » . .

و « عثمان » رضى الله عنه وأرضاه ، رجل نادته الأقدار ودعَتْه من بين صفوف العِلْية والصَّفوة . . عِلْيَةِ قريش ، وصفوة العرب . ليأخذ مكانه مُبكِّراً ، بين الأوائل المبكّرين فى موكب الهدَى ودينِ الحق .

وحين تَلقَّى إشارة القدَر ليتسلم دَوْرَه ، لم يتردد لحظة . .

ومن تحت سُقُفِه المرفوعة ، ومن فوق فُرُشِه الموضوعة ، ومن بين مناعمه ومطاعمه ودنياه الحافلة العريضة ، خرج حاملا أعباء دَورِه الجديد ، مستقبلاً حياة المتاعب والتضحية والعطاء .

ألاَ إنّ أولىَ الألقاب به ، وأصدقها فى تصوير حقيقته لهو لقب « المهاجر » . . .

فَمِن عَلْيائه وثرائه ، ومن جاهه العريض ، ونعمائه الوارفة خرج إلى دعوة الله ودعوة رسوله . . ومتى . . ؟ ليس فى أيام عافيتها وانتصارها . . ! بل فى ساعاتها الأولى ، وهى مقبلةٍ بأتباعها وأنصارها على العسرة والضيق ، وعلى كل ألوان العسف والاضطهاد .

وإذا كان الاضطهاد والتعذيب ، يؤذيان « الرجل العادى » فى جَسده ؛ فإنهما يلحقان برجل « الصفوة » فوق أذى الجسد ، أذى آخر أشدَّ وأوجع . ذلكم هو الأذى الذى يصيب كرامته ومكانته . .

و « عثمان » كان واحداً من رجال الصفوة . . لا تسمح مكانته فى قومه بأن تُنال كرامته بقول أو عمل يؤذيانها أو يَخدشانها .

فما بالُه يأخذ مكانه مع السبعة الأوائل الذين أحاطوا برسول الله

وأخذوا مكانهم إلى جواره ، وهو يعلم ما سيحيق به وبإخوانه من كيد ، وضُرٍّ ، وبلاء . . ؟؟

إن « طبيعة » المهاجر ، بل إن « ضمير » المهاجر ، كان يدفع خُطاه ويقود حياته بعيداً عن أمجاد قريش ، ومناعم العيش ، إلى شظف التضحية وشَرَفِ البذل تحت لواء الهدى والرحمة والنور الذى رفعه بيمينه الباسلة القادرة « محمد رسول الله » صلى الله عليه وعلى آله وصحابته .

ونحن نقول : « ضمير المهاجر » ؛ لأن الهجرة لم تكن بالنسبة لعثمانُ مجَرد سفر ، وانتقالٍ من بلد إلى بلد . . بل كانت أبعد من ذلك غَوْراً وُعمقاً . .

لقد كانت سفَرَ روح ونفس وحياة ، قبل أن تكون مُجرّد خُطًى فوق الرمال . .

لقد كانت « عُبوراً » لتُخوم الذات وحدودُ المصير . . قبل أن تكون « عبوراً » لتُخوم جغرافية ، وحدود إقليمية . .

لقد كانت « تنازُلاً » كاملا عن حياة حافلة عريضة ، وادعة ، مريحة . . « واستقبالا » لحياة أخرى ، لا يبدو من عاجل أمرها على الأقل إلا أنها حياةُ كَدٍّ ، وبذل ، وتضحية ، وعَناء . .

وإقدامُ رجل فى مثل مكانة « عثمان » على هذا النوع من « المقايَضة » لا يمكن أن يكون إلا ثمرةً حلوة مجيدة ، لضميرٍ حر شريف ، يدفع صاحبه لهذا الطراز من الهجرة العميقة الفاصلة .

ولعلّنا نستشرف هذا المعنى كله من الوصف الذى خلعَه الرسول

الكريم على صاحبه « عثمان » رضى الله عنه حين نعته بـ [أول المهاجرين إلى الله بعد نبي الله لوط عليه السلام] . .

أجَل . . لقد خلع الرسول عليه هذا الوصف حين أمره بالهجرة إلى الحبشة ومعه زوجُه « رُقَيَّة » .

على أننا لن نقف طويلا أمام هجرته إلى الحبشة فى المرة الأولى ، وهجرته إليها فى المرة الثانية ؛ لأن الذى سيشغلنا فى « هجرة عثمان » هو « جوهـــر » الهجرة و « ضميرها » . . وليس « شكلها » ولا « جغرافيتها » .

إننى كما قلت من قبل فى كتاب « رجال حول الرسول » لا تشغلنا الوقائع والأحداث إلا بقدر ما نَسْتَشِفُّ روحَها الحىّ ، وجوهرها الكامن . . وإلا بقدر ما نُبصر « العظمةَ الإنسانية » من خلال الوقائع والأحداث .

و « عثمان » المهاجر . . المهاجر بقلبه ، وبروحه ، وبضميره ، هو موضوع حديثنا فى هذا الفصل الأول من الكتاب . . مُهتدين إلى تلَمُّس عظمة الهجرة فيه بِمَسْلكِه من اللحظة التى استقبل فيها الإسلام جذلانَ صادقاً ، إلى اللحظة التى لقى فيها ربه صابراً مُحْتسِباً .

أجَل . . إلى آخر لحظات عمره ، سنظل نرى « عظمة المهاجر » فى حياة « عثمان » .

وقد يبدو فى هذه العبارة شىء من المبالغة عند الذين يقرءون حياة « عثمان » من آخرها . . ويظنون — مخطئين — أن ذلك القِسْم الأخير من حياته ، قد أصاب سابقَته بالأذى والتشويه . . ! !

أولئك قوم يبخسون الفضيلة قدرها حين يظنون أن الخطأ أقوى منها . . ! !

لا . . إن الفضيلة أقوى من الخطأ ، والإيمان أقوى من الزَّلَل . . وإن الخطأ – مهما يكن شأنه – لا يستطيع أن يقهر عظمة الفضيلة ، ولا أن يطفئ نورها ، ويردَّ روحها الحيَّ تُراباً فى تُراب . .

ولسوف نلتقى فى السنوات الأخيرة لخلافة عثمان رضى الله عنه ببعض التصرفات التى كشفت نتائجها عن حاجاتها إلى مزيد من الصواب ، ولكن هل كانت هذه الأخطاء وليدةَ تنكر « عثمان » لمبادئه التى قام عليها إيمانه واقتناعه وفضائله . . ؟ أعنى هل كانت تحدِّياً لله ، ولرسوله ، ولدينه . . ؟

إن ألدَّ خصوم « عثمان » لم يستطع أن يُقنع نفسه بهذا الاتهام .

إذن ، ماذا كانت . . ؟

كانت ثمرة اجتهاد من الخليفة لم تُواتِه الحظوظ الوافية من رؤية الصواب .

وكانت ثمرة ظروف عارمة غَطَّت الدولة الجديدة المتَّسعة ، وفرضت عليها طُرُزاً جديدة من العلاقات والمشاكل ، ومن العِلَل والنتائج . . . ! !

وإلى أن يجىء أوان مواجهة هذه الساعات الحرجة فى تاريخ الخليفة والإسلام ، دعونا نَعُدْ إلى موضوعنا الماثل حول « عثمان » المهاجر . . بل « عثمان » أول المهاجرين . .

* * *

إن هجرته إلى الله طوال سني حياته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلامه.

والهجرة والإسلام ، يرتبطان كلاهما بشخصيته الباطنة وتركيبه النفسي .

وفي شخصيته الباطنة هذه نلتقي بخُلُقين يفوقان بقية فضائله وأخلاقه في السيطرة على نفسه والأخذ بزمامه . . هذان الخُلقان هما : السماحة ، والحياء . .

ووراء كل المآثر التي تُحسبُ له . . وجميع الأخطاء التي تحسب عليه . . نجد هذين الخلُقَين يحملان مسئولية المآثر والأخطاء . . !

ولنبدأ بإسلامه . .

لقد جاء إسلامه سماحة وحياء . . لا حياء من أصدقاء مقربين ، بل حياء من الله الذي كان يرى آيات وجوده تلمع في وجدانه وتهز مشاعره . . وحياء من رسوله الذي كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبُّلا ويقيناً .

ورجل مثل « عثمان » يقود « الحياء » كل تفكيره وكل تصرفاته ، لا يستطيع أبداً أن يهرب من اقتناعه .

إنه ليخجل أمام نفسه خجلاً مُزلزلا ، إن هو زيَّف اقتناعه أو تنازل عنه .

هكذا نراه ساعة إسلامه . . وهكذا سنراه عندما يحاصره الثوار يطلبون رأسه وحياته وهو قادر على صَرْفهم وفَلِّ بأسهم بوسيلة من وسائل شتَّى كان يملكها جميعاً . . ولكنه وهو ابن الثمانين يرفض النجاة بوسيلة لم يكن لها في دائرة اقتناعه مكان . . ! !

* * *

ساعة إسلامه ، كانت السماحة ، وكان الحياء يقودان خُطاه الوديعة الواثقة إلى رسول الله فى صحبة « أبى بكر » رضى الله عنه . حيث وضع يمينه فى يمين الرسول ، وضمَّخها ببيعة صادقة ومؤمنة . .

وكان إسلامه وديعاً غضًّا ، كأنفاس الزهر فى فَجر الربيع ! !

فلم يكد « الصدِّيق أبو بكر » يهمس فى أذنه بنبأ الدعوة الجديدة التى يبلغها « الرسول » عن ربه حتى انفتح قلب الرجل السمح الحَيِىّ عن آخره .

لم يطلب مهلة للتفكير والرَّوِية ، فقد كان وجدانه المستقيم يدرك عبث الحياة الدينية التى يحياها قومه . . كما كان يعرف المستوى الرفيع الجليل الذى بلغه « محمد » فى صدق نفسه ، وصدق حديثه ، وصدق رُؤاه . .

كان « محمد » حتى قبل أن يكون رسولا يملأ الأفئدة الذكية الصافية روعة وتأثيراً . . وكان لعثمان فؤاد من هذا الطراز ، يحمل لـ « محمد » أروع الصور وأبهاها . حتى لقد انعكس هذا الإعجاب بل هذا الإيمان بـ « محمد » فى رؤيا رآها « عثمان » ذات يوم وهو قادم من الشام . . حين جلس يَقِيل فى مكان ظليل من « مُعان والزرقاء » وغلبه النوم هو ورفاقه ، فإذا به يسمع فى حلمه منادياً ينادى النائمين أنْ هُبُّوا أيْقاظاً ؛ فإن « أحمد » قد خرج بمكة . . ! !

كان وجدانه إذن مُهيَّأً لانتظار المنقِذ ، ولم يكن بمكة كلها من تمنحه فضائله هذه المكانة بحق مثل « محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب » . .

أفينكُص عثمان على عقبيه ، وقد جاءته البشرى بظهور المنقذ والنبيّ .

وأين يذهب إذن من حيائه . . ؟ ؛

أفيستسلم عثمان للتردد ويطلب من نفسه لنفسه مهلة للتفكير والتشاوُر ؟

وأين يذهب إذن من سماحته . . ؟ !

إن الحياء ليذوده عن التردد

وإن السماحة لتزوده عن الإرجاء

والحياء والسماحة عنده وفيه ، لم يكونا مجرد خُلُقَيْن ، وفضيلتين ، بل كانا « طاقة هائلة » تسيطر على شخصيته كلها ، وتأخذ ببقية فضائله إلى طريقها . .

لقد بلغ بسماحته مستوى قياسيًّا ، لم ينهض إليه سواه . . حتى هتف الرسول يوماً أمام مشهد من مشاهد هذه السماحة الباهرة قائلا :

« ما ضَرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم . اللهم ارْضَ عن عثمان ؛ فإني عنه راض » ! !

وإلى مثل هذا المستوى بلغ حياؤه ، حتى زكاه الرسول قائلا :

« أصْدَقُ أمَّتي حياءً ، عثمان » ! !

بل إن ثمَّةَ واقِعة تُرينا أكثر من سواها ، كيف كان حياء « عثمان » عظيماً ، والواقعة ترويها لنا أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها ، فتخبرنا أن « أبا بكر » استأذن يوماً على رسول الله وكان الرسول مضطجعاً وقد

انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه ، فأذن لأبى بكر فدخل ، وأجرى مع الرسول حديثاً ثم انصرف . .

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن له ، ومكث مع الرسول بعض الوقت ثم مضى . .

وصادف أن جاء بعدهما عثمان ، فاستأذَن . . وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه فيجلس بعد أن كان مضطجعاً ، ويُسْبل جلبابه فوق ساقِه المكشوفة ، ويقضى عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف .

وبُعَيْد انصرافه – تسأل عائشة الرسول عليه السلام قائلة : [يا رسول الله . لم أَرَكَ تهيأت لأبى بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان] . . ؟

فيجيبها الرسول :

« إن عثمان رجل حَيِىٌّ ، ولـو أذِنْتُ له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ولرجَع دون أن أقضى له الحاجة التى جاء من أجلها يا عائشة : ألاَ أستَحى مـن رجل تستحى منه الملائكة » . . ؟ ! !

إن هذه العبارة وحدها [رجل تستحى منه الملائكة] تصور لنا كل أبعاد هذا الحياء الذى كان يتمتع به « عثمان » . .

هذا الحياء الذى كان أصيلا ممعناً فى الأصالة . . والذى كان دائماً ، ممعناً فى الديمُومة . .

لم يَغب عن حياة صاحبه لحظة من ليل أو مِن نهار . . فلا يُرى « عثمان » إلا وحياؤه معه .

ودائماً كان الرسول عليه السلام يشيد بهذا الحياء كأنما يرفعه قدوة ونبراساً . .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« أرحَمُ أمتى أبو بكر . . »

« وأشدُّها فى دين الله عمر . . »

« وأشدُّها حياءً عثمان . . »

سماحته إذن وحياؤه ، حملاه كما قلنا فى سهولة ويُسر ، وفى غبطة ويقين ، إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث بايعه على الدين الحق ، وعلى كل ما يفرضه الدين من تَبِعات وواجبات .

ولقد كانت « الهجرة » أول واجب يفرضه هذا الدين . . ولا نعنى الهجرة بمعناها الجغرافى إلى الحبشة . . ثم إلى المدينة . . بل نعنى الهجرة بمعناها الروحى . . معناها العميم والعميق . . الهجرة من حياة ، إلى حياة . . ومن وُجود ، إلى وجود ، . . الهجرة التى تعنى التنازُل عن القديم بكل مقدساته وأمجاده . ، ،والسفر إلى الله بزادٍ جديد . . ! !

فَلْيحمل المهاجر إذن إيمانه ، وليمض على بركة الله .

* * *

قلنا إن إسلام « عثمان » كان مبكراً ، فهو أحد الخمسة ، أو السبعة الأوائل الذين سبَقُوا إلى الإسلام . وكان الرسول يومئذ يدعو إلى الله فى إسرار وخُفْيَة . . وحتى « دار الأرقم » التى كان يلتقى فيها بأصحابه مُسْتَخْفِين من قريش لم تكن قد وُجدتْ بعد ، وهكذا نزل « عثمان » إلى ميدان الدعوة بكل مخاطرها فى وقت تَندُر فيه النصرة ، ويعزُّ النصير . .

وهذا أول منازل هجرته .

لقد ترك حياته المستقرة الممتلئة الآمنة ، إلى فراغ مجهول تتهدده المحاذر والأخطار . . ! !

ولقد وضع خُطاه على دَربٍ غير مطروق ، تاركاً النَدِيَّ الذى كان يموج بالصُّحبة المؤنسة والحياة المرِحَة الحافلة . . ! !

ولا يطول به الوقت ، حتى تكون قريش قد شحذت أنيابها ، وراحت أحقادها تتلمَّظ بهذه العشيرة المؤمنة التى يقودها رسولها فى طريق الهدى والنور .

ويتلقى « عثمان بن عفّان » رضى الله عنه من تلك الأحقاد الضارية ما يُضاهى مكانته السالفة فى قومه ، ويتولى أمر تعذيبه عمه .

– الحكَمُ بن أبى العاص – فيوثقُه بالحبال وبالسلاسل ، ويصرخ فى وجهه :

« أترغَبُ عن مِلَّة آبائك إلى دين مُحْدَث . . ؟ ؟ والله لا أحُلُّ وثاقك أبداً حتى تدعَ ما أنت عليه من هذا الدين » . .

ويجيبه « عثمان » فى إصرار « المهاجر » الذى عرف طريق الله ، وثبَّت فوق مشارفه خُطاه . .

« واللهِ ، لا أدع دين الله أبداً ، ولا أفارقه » . . ! !

ويُوالى عمُّه تعذيبه . .

ويُوالى « عثمان » إصراره . .

وتحاصره قريش كلها بازدراء مصطنع ، آملةً أن تُذل كبرياءه ، وتهز كرامته . . لكن المهاجِر إلى الله كان قد نبذَ وراءه عالَمهم كله بما فيه من غرور وباطل . . والكرامةُ التى تستمد زهْوَها من الضلال لم تعد هى الكرامة التى يحملها الآن بعد أن آمن واهْتدَى .

إن الكرامة التى منحه الإيمان إياها كرامةٌ أخرى لا تستطيع قريش ، بل لا يستطيع العالم كله أن ينال منها منالا . .

إنها كرامةٌ لا ينال منها سوى النكوص عن الدين الحق ، أو التفريط فيه ، أو الهروب من مسئولياته الثقال . .

وهكذا صمد « عثمان » للأذى . .

وغمت أعداد المسلمين الذين دخلوا فى دين الله ، وتضرمت نيران قريش ، وأوغَلَت فى تعذيبها واضطهادها .

ورأى الرسول الرحيم ألاّ قِبَلَ لأكثر أصحابه بهذا الأذَى ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، إذ كان على رأسها يومئذ ملك عادل ، يُنشَد الأمْن فى رحابه ، والعافية فى جواره .

وكان « عثمان » أول مهاجر إليها ، ومعه زوجته « رقَية » بنت رسول الله ، وكان الرسول قد زوَّجها له بعد إسلامه .

ووقف الرسول يودعهما بنظراته الحانية وقلبه الودود ، ويقول :

« إنهما لأوَّلُ من هاجر
إلى الله ، بعد نبى الله لوط »

* * *

كانت الهجرة تصهر شمائل عثمان وتزيدها فاعليَّة وألقًا .

وكان إدراكه لمغزاها الحق ، باعتبارها هجرة روح ، قبل أن تكون هجرة مكان . . كان هذا الإدراك يجعل إيمانه فى حالة صَحْو دائم وتَلْبية سريعة .

وإنه ليعود إلى مكة . . ثم يهاجر إلى المدينة . . وفى كل زمان ومكان يحتويه ، تزداد روحه المؤمنة تعلقاً بالهجرة فى أعمق مضامينها وأسمى مفاهيمها .

كانت كلمات الرسول التى وصَفَتْه بأنه « أول مهاجر إلى الله » تهزُّ أشواقه إلى الله ، وتشحذ تصميمه على أن يحيا دائماً فى مستوى هذا الوصف وهذا التكريم .

ولقد نجح وظفر تصميمه بانتصار عظيم .

عندما حاصره الثوار وهو خليفة ، يريدون عزله أو اغتياله . تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأى وهذه المشورة :

« يا أمير المؤمنين ، لقد نزل بك ما ترى . .
وإنى أُشير عليك بثلاث ، اختَرْ إحداهُن . .
« إما أن تخرج فتقاتلَهم ، فإن معك قوة وعدَداً . وأنت على الحق وهم على الباطل . .
« وإما أن تفتح لك من خلف الدار باباً تخرج منه فى غفـلة منهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة ؛ فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها . .

« وإما أن تلحق بالشـــام : فإن بهـــا معـــاوية . . » .

ويجيب الخليفة العظيم بكلمات لا نلمح فيها دهاء ولا مُناورة ، ولا حرصاً على الحياة . .

إنما نلمح فيها « ضمير المهاجر » وخلقه وتصميمه .

قال رضى الله عنه مجيبًا صاحبه :

« أمَّا أن أخرج فأقاتلهم ، فوالله لَن أكون أول من يخْلُفُ رسول الله فى أمته بسَفْك الدماء . .

« وأما خروجى إلى مكة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوماً : يُلْحَدُ رجل من قريش بمكة ، يكون عليه نصف عذاب العالَم . . ولن أكون هذا الرجل . .

« وأما خروجى إلى الشام لأن فيها معاوية ، فلا والله . . ولَن أُفارق دار هجـــرتى ومجاورة رسول الله ما حييت . . »

أية روعة ؟ ؟ وأىُّ جلال . . ؟ ؟

رجل يحيط به ثوار مسلحون يريدون رأسه ، وأمامَهُ فُرص النجاة والخلاص ، ثم يرفضها جميعاً لأنهـــا ستنال من كرامة هجرته وثوابها . . ؟ ؟ ! !

وفى أية سِنٍّ كان ، وهو يحمل هذا الولاء التَّقِيَّ الشاب للهجرة ولحقِّها عليه . . ؟ ؟ فى سِنِّ الثمانين . . ! !

إنه يرفض أى نقض شكلى أو موضوعى للهجرة .

ومغادرتُه المدينة التى عاش ومات بها رسوله الحبيب وصاحباه أبو بكر وعمر ، نقض للهجرة يرفضه ويأباه ، ولو كان ثمن الرفض حياته . . كما أن خَوْضَ معركة مسلحة ضد الثوار الذين هم برغم تمردهم الرجيم مسلمون ومُنْتَمون إلى دينه وعقيدته ، نقْض آخر للهجرة . يرفضه كذلك ويأباه ، ولو كان ثمن الرفض حياته . .

ولمن شاء أن يختلف معه فى الرأى . . ولكن علينا أولا أن يكون لدينا تصوُّر كاف لما كانت تعنيه كلمة « مهاجر » بالنسبة لعثمان . . ! !

إنهـا تعنى ما صنَعه تماماً . . شيء أثمن من الأمن ، وأغلى من الحيـاة ! !

لقد نفذ بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلى جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين .

عرف أن الإسلام فى جوهره هجرة كاملة إلى الله .

ولا ينبغى أن يكون للجاه ، ولا للمال ، ولا للحياة نفسها سلطان – أىُّ سلطان – على ضمير المهاجر وروحه الغلاّب .

ولقد تنازل « عثمان » لإسلامه ولهجرته عن جاهه ، وعن ماله ، وأخيراً عن حياته ، فى سماحٍ منقطع النظير . .

ولو رأيناه وهو يعطى أمواله بغير حساب للدعوة التى آمن بها وحمل مع المؤمنين لواءها ، لرأينا رجلا من طراز فريد .

لقد كان يبدو بعطائه وبسخائه ، وكأنه المموِّل الوحيد للأمة الناشئة الجديدة .

ولو أردنا أن نتعرف إلى مسلم هاجر من دنياه ومن أمواله وثرائه إلى البذل العريض ، والعطاء المفيض ، لعزَّ علينا أن نجد لعثمان فى هذا المجال نظيراً . .

* * *

* عندما هاجر الرسول عليه السلام وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة الماء ، وكان بها عَيْن تفيض بماء عذْبٍ طيب المذاق . . وتُدْعَى « بئر رومة » ويملكها يهودى يبيع ملء القربة بمُدّ . .

وتمنَّى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن . .

وسارع « عثمان » رضى الله عنه إلى تحقيق رغبة الرسول ، فعرض على اليهودى صاحب البئر أن يبيعها له ، فأبى . . فساوَمه « عثمان » على نصفها . واشترى النِّصف باثنى عشر ألف درهم . . على أن تكون لليهودى يوماً ولعثمان يوماً . . فكان المسلمون يستسقون فى يـــوم عثمان ما يكفيهم يومين . . ! ! وهكذا وجد اليهودى نفسه ،وقد خسر سُوقه التى كانت رائجة ، فعاد يعرض على « عثمان » أن يشترى منه النصف الثانى ، فاشتراه . . وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب . . ! !

* وعند ما كثر الداخلون فى دين الله بالمدينة ، وصار المسجد

يضيق بهم ، تمنى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشترى الرقعة المجاورة له كى تضم إلى المسجد ، ويزداد بها رحابة واتّساعاً . .ومرة أخرى ، لم يكن هناك غير « عثمان » ، تلقّف رغبة الرسول فى حبور وغبطة ، وذهب إلى أصحاب ذلك المكان ، واشتراه منهم بثمن باهظ قدره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً . .

* وعندما فتح الله مكة لنبيه وعاد إليها ظافراً كريماً . . رأى أن يُوسِّع المسجد الحرام ، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض توسعته فاعتذروا بأنهم لا يملكون غيره ، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة ثالثة — كان هناك « عثمان » ، لم يكد يبلغ النبأ مسامعه حتى سارع إلى أصحاب الدار الواسعة العريضة واشـــتراها منهم بعشرة آلاف دينار . .

* وفى العام التاسع الهجرى ولّى « هرقل » الامبراطور الرومانى وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية مُتلمِّظا برغبة شريرة فى العدوان عليها والْتِهامها . .

لقد كان الدين الجديد برسوله العظيم ، ورجاله الشجعان البواسل قد ملأوا حياته وحياة « بيزنطة » كلها قَلَقاً وخَوْفاً .

وكان الامبراطور يومئذ مُنْتَشِياً بنصره على فارس ومن ثمَّ قرَّر أن يسير بجيشه إلى هذه الأمة الجديدة فى بلادها وديارها .

وفعلا أمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف .

وترامت الأنباء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى أصحابه بالتهيؤ للجهاد .

كان الصيف حاراً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعانى الجَدْب والعُسْرة . . فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل وخرجوا إلى الجهـاد فوق الصحراء الملتهبة المتأجّجة ؛ فمن أين لهم العتاد والنفقات المبهظة التى يتطلبها القتال . . ؟ !

لقد حَضَّ الرسول أصحابه على التَّبرُّع ، فأعطى كلٌّ قدْرَ وُسْعِه ، وسارعت النساء بالحلى يقدمنه إلى رسول الله ليستعين به فى إعداد الحملة . . بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتُغنى كثيراً أمام المتطلبات الهائلة للجيش الكبير . هذا الجيش الذى نُعِتَ يومئذ بـ « بجيش العسرة » .

ونظر الرسول إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال وقال :

« من يُجَهِّز هؤلاء ، ويغفرُ الله له » . . ؟ ؟

وما كاد « عثمان » يسمع نداء الرسول هذا ، حتى سارَعَ إلى مغفرة من الله ورضوان .

وهكذا وجدت العسْرَةُ الضاغطة « عُثمانَها » المِعطاء ! !

وقام رضى الله عنه بتجهيز الجيش كله ، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال . . ! !

يقول ابن شهاب الزهرى :

« قـدّم عثمان لجيش العُسْرة فى غزوة

تَبوك تسعمائة وأربعين بعـيراً ، وستين
فرساً ، أتمَّ بهـا الألف » ! !

ويقول حذيفة :

« جاء عثمان إلى رسول الله فى جيش العُسرة
بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه ، فجعل
الرسول صلى الله عليه وسلم يُقلبها بيده
ويقول : غفر الله لك يا عثمان ما أسررت
وما أعلنت ، وما هو كائن إلى يوم القيامة »

ويقول عبد الرحمن بن عوف :

« شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد جاءه عثمان بن عفان فى جيش العُسْرَة
بسبعمائة أوقية من الذهب » . .

ألم أقل لكم : إنه كان يبدو وكأنه المموِّل الوحيد للأمة الجديدة ، والدين الجديد . . ؟ ؟

تُرى هل كان « عثمان » قادراً على كل هذا البذل الطَّوْعِىِّ لو لم يكن قد هاجر إلى الله سبحانه هجرة صادقة ، أنْسَتْه كل شىء إلا الله ورسوله والدار الآخرة . . ؟ !

* * *

ومضى الرسول على رأس جيشه المسلم حتى وصلوا موطناً يُدْعى « تَبُوك » فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

وهناك جاءته الأخبار مُبشرة بأن الامبراطور الذى كان يعد العُدَّة

للزحف من دمشق ، قد ثَلَم الله عزْمَه ، وغادر دمشق نافضاً يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النبي وأصحابه إليه .

وحَمِدَ الرسول ربه أن كفى المؤمنين القتال ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به « عثمان » .

فهل استرجع من ذلك شيئاً . . ؟ ؟

هل استرد منها قرشاً ، أو بعيراً ، أو خِطاماً . .؟ ؟

كلا . . وحاشاه أن يفعل . . ولقد ظلَّ كما كان دوماً سريع التلبية لكل إيماءة من الرسول تعنى جديداً من البَذل ، ومزيداً من العطـاء .

* * *

هذه لمحة من ضياء تكشف لنا حقيقة الهجرة التى هاجرها « عثمان » . .

الهجرة التى جعلته يخرج من ماله ، ومن جاهه ، ومن دنياه العريضة كلها ، ويُسافر إلى الله فى حياء رجل يهرب من الأضواء . . ويقطع أيامه بين أصحابه ، وفى مجتمعه مُتَلفعاً بهدوء عجيب ، معطياً ظهره لِصخب الشهرة ، وإغراء الظهور .

كانت العبادة أُنْسَ رُوحِه . . وكان القرآن مذ أسلم مَهوَى فؤاده ، وصديق عمره .

أفما آن لنا أن نرى من عبادته ونُسكه مشهداً يزيدنا معرفة ببهاء روحه ، وعظمة يقينه . . ؟

بلى — آن . . . !